

حضور الأصل في الأيقونة بالنعمة حسب تعليم الكنيسة*

د. ديمتريوس تسيللنغيديس

جامعة تسالونيك - جامعة البلمند

ترجمه عن الألمانية: د. دانيال عيوش

إنَّ حضور الأصل في الأيقونة حقيقة كنسية سُجِّلت في الكتابات الآبائية في زمن الصراع حول الأيقونة. تشكّل هذه الحقيقة جزءاً لا يتجزأ من لاهوت الكنيسة حول الأيقونة والذي عبّر عنه بقوة وسلطة المجمع المسكوني السابع، وأكد بهذا الشكل خبرة أعضاء الكنيسة التي عاشت ولم تزل تعيش هذه الخبرة كونها جسد المسيح بالنعمة.

لكي نوضح حضور الأصل بالنعمة في الأيقونة علينا أن نوضح معنى الأيقونة في الكنيسة والعلاقة القائمة بين الأيقونة وأصلها. إنَّ توضيح هذه العلاقة لضروري جداً لأنها تشكّل الشرط الأساسي من أجل فهم الحضور بالنعمة للأصل المصوّر في أيقونته. علاوةً على ذلك، تؤثر هذه العلاقة على المفهوم العام لتعليم الكنيسة العقائدي بخصوص الأيقونة.

إنَّ الأيقونة حسب القديس يوحنا الدمشقي "هي صورةٌ (ομοιωμα) ومثالٌ (εκτυπωμα) يُشار بواسطتها إلى الشخص المصوّر".^(١) من هنا يمكننا القول إنَّ التشابه

(*) أُلقيت هذه المحاضرة في معهد القديس يوحنا الدمشقي اللاهوتي - جامعة البلمند في ١٢/١/٢٠٠٢.

(١) Προς τους διαβαλλοντας τας αγιας εικονας, Λογοι τρεις, 3, 16, PG 94, 1337 AB 1368 D

وكان من قبل بكثير القديس غريغوريوس اللاهوتي قد حدد الأيقونة كتمثيل (μιμημα) وك "نسخة" للأصل.

ويشير إليها قائلاً أن الأيقونة تمثل في جوهرها الأصل: "Λόγος 30, 20, ΠΓ 36, 129B".

انظر أيضاً تحت المفردة εικων في:

H. Liddell & R. Scott, Μεγα λεξικον της ελληνικης γλωσσης (translated by Ch. Moschos), Vol. 2, p. 30; J.B. Hoffmann, Etymologisches Worterbuch des Griechischen, München 1971, p. 71.

القائم بين الصورة والمثال وأصلها هو أساس وجود الأيقونة، لا بل إنه ليس للأيقونة أقنوم / شخص مستقل، ولكنها متعلقة بحقيقة الشخص المصور الذي يعطي للأيقونة قيمتها. تكوّن الأيقونة وأصلها حسب القديس نيقيفوروس، بطريك القسطنطينية، حقيقة واحدة بسبب الاتحاد الأقنومي. ولكنهما في الآن نفسه حقيقتان مختلفتان بسبب طبيعتيهما،^(٢) إذ إن طبيعة الأيقونة (المادة) وطبيعة الأصل تختلفان. إن ما تصوّره الأيقونة ليس هو طبيعة الأصل بل أقنومه أو شخصه.^(٣)

إن الأيقونة وأصلها حقيقتان قائمتان على علاقة حميمة جداً لدرجة أنه يصعب فهم الواحدة دون وجود الأخرى. الأصل هو سبب وجود الأيقونة كصورة لأصل ما، وبدورها تفترض الأيقونة وجود أصل لها. بشكل آخر، إن التكلم بأحدى هاتين الحقيقتين يفترض وجود الحقيقة الأخرى.^(٤) وهكذا يتّضح لنا السبب في كون كل أهمية الأيقونة مشترطة بعلاقتها بالأصل. يقول القديس ثيودوروس الستوديتي: 'نُفهم هذه العلاقة كنتيجة تنبع من كيان الأصل الداخلي'،^(٥) وبهذا المعنى فإن الأيقونة تستند إلى أصلها لدرجة أن وجودها يتعلّق به. بكلام أوضح، علاقة الأيقونة بأصلها مبنية على التشابه القائم بين الصورة والأصل. وهكذا 'صارت للمسيح المتجسّد، أيقونة مصنوعة بوسائل الفن تكون على علاقة بالمسيح بواسطة التشابه الصوري بينهما'.^(٦) لهذا القول أهمية كبرى، لأنه على أساسه تقرّر الكنيسة الأرثوذكسية النماذج لأيقوناتها. يجب على النماذج أن تكون متطابقة مع الأشخاص المصورين في الأيقونة، وليس مع

(٢) Αντιρρησις και ανατροπή των παρα του δυσσεβους Μαμωνα της σωτηριου του Θεου Λογου σαρκωσος αμαθως κενολογηθεντων ληρηματων, Λογοι τρεις, 1,28, ΠΓ 100, 277 A. Χφ. αλσο Θεοδορ Στυδιτες, Επιστολη προς Πλατωνα, ΠΓ 99, 500-501 A, as well as Αντιρρητικος κατα Εικονομαχων, Λογοι τρεις, 2,11, ΠΓ 99, 357 X.

See Theodor Studites, Αντιρρητικος κατα Εικονομαχων, Λογοι τρεις, 3,1, ΠΓ 99, 405 A.

Nikiphoros, 1,30, PG 100, 277 D. (٤)

PG 99, 424 D. (٥)

(٦) PG 99, 417 D 7. للتعلم في علاقة الأيقونة بأصلها راجع:

D. Tselengidis, *H θεολογια της εικονας και η ανθρωπολογικη σημασια της* (Thesis), Thessalonika, 1984, 37-60.

أي شخص كان من زمن الرسّام، وذلك لأنّ الأشكال المرسومة في الأيقونة تكون دائماً على علاقة بشخصياتها التاريخية. بناءً على ذلك، لا تصوّر الأيقونات الأرثوذكسية الشخص الأصلي بأيّ شكل كان، ولكنها تقدّمه دائماً تعبيراً عن اختبارها التاريخي له.^(٧) تصوّر أيقونات الكنيسة المسيح والقديسين ليس بأشكال مخترعة، مثالية أم مجردة، بل إنّها تأخذ بعين الاعتبار الميزات الخاصة بالشخص التاريخي وكما تتذكّره الكنيسة استناداً على هذا المراس الكنسي وتعبيراً عن الخبرة الروحية لهذا المراس. لقد أتى آباء المجمع المسكوني السابع بالمقول الشهير: "من يعاين أيقونة" يؤخذ لمعاينة الأصل"^(٨). هذا يعني أنّ مشاهدة الأيقونة تقودنا إلى مشاهدة الأصل المصوّر فيها. لذلك رأت الكنيسة أنّه لا يصحّ أن تُرسم أيقونة على أساس نموذج غير متطابق مع الشخص الأصلي المصوّر في الأيقونة.

بعد هذه التوضيحات الضرورية تنتقل الآن إلى الأسس اللاهوتية التي تسمح لنا بإمكانية إدراك الحقيقة المعاشة في الكنيسة فيما يخصّ حضور الأصل في الأيقونة.

إذا ما درسنا نصوص الآباء المدافعين عن الأيقونة للقرنين الثامن والتاسع معاً، مع سجلات المجمع المسكوني السابع، نلاحظ أنّ عقيدة الكنيسة حول الأيقونة مرتبطة حتماً بالتفريق الكياني / الوجودي بين الجوهر والقوّة الإلهيين. وهكذا تكمن هذه العقيدة في مجال اللاهوت بكل معنى الكلمة. وذلك لأنّه بهذا الشكل وحده يُدرك مفهوم الأيقونة كحامل الألوهة أي كحامل قوة الله ونعمته غير المخلوقتين اللتين يحملهما أيضاً أصل الأيقونة. في هذا المجال يقول القديس ثيوذرس الستوديتي بصواب:

(٧) ونقرأ في أعمال المجمع المسكوني السابع أن الآباء شدّدوا بقوة على أنّ المؤمنين إذ قد رأوا الرب ... رسموه كما رأوه ... وإذ قد رأوا الشهداء الذين سفك دمهم من أجل المسيح، رسموا خيرهم. Mansi 12 963 C.
(٨) يتجذّر إكرام المؤمنين للأيقونة في هذه الميزة الرئيسية للأيقونة. يفترض قول باسيليوس الكبير الشهير المذكور في أعمال المجمع المسكوني السابع إكرام الأيقونة يتوجه إلى أصلها؛ أن للأيقونة علاقة بأصلها *Περι Αγίου Πνεύματος*, 18, 45, PG 32, 149; see *Mansi* 12, 1146 A; 13,69 D, 337 E من هذه العلاقة الحميمة نستطيع ان نفهم وظيفة الأيقونة في الكنيسة. تحول الأيقونة إكرامها إلى الأصل، فتصبح الأيقونة وسيطاً للوصول إلى الأصل. ولأنّ للأيقونة وظيفة الوساطة، نفهم إكرامها كإكرام واحد وغير منفصل للأصل أيضاً، كما وأن الشخص المرسوم هو واحد (راجع *Mansi* 13, 377 E). يختلف الأمر تماماً لو فصلنا الأيقونة عن أصلها، عندئذٍ كانت الأيقونة تكريم ككائن موجود من أجل *Πλατωνά, ΠΓ 99, 504 A* الأمر الذي كان يقودنا إلى عبادة أصنام. (Theodor Studites, *Επιστολή προς*

إذا أراد أحد أن يقول إن الألوهة حاضرة في الأيقونة، فإن هذا لم يكن على عدم صواب بشكل كلي، ولكنه لا يحدث على أساس اتحاد في الجوهر.^(٩) إن حضور الألوهة في أيقونة الأصل المصوّر لا يكون حضوراً بحسب الجوهر، بل كما قال القديس يوحنا الدمشقي: 'بالنعمة والقوى الإلهية (ἐνεργεια).'^(١٠) لذلك نقول إن هذا الحضور هو مُنعم (نعمي) يتم بالنعمة. وهنا يترأى لنا بشكل بديهي أنه يجب التفريق بين الجوهر الإلهي والقوة الإلهية. هكذا، وبشكل غير مباشر، تُعلن الكنيسة ثبات لاهوتها بخصوص التفريق بين الجوهر غير المدرك وغير المشارك وبين قوّة الله ونعمته المدركين واللذين تتفاعلان مع العالم المخلوق من أجل تقديس الخليقة ومن أجل تأليه الإنسان، وهذا ما تؤيده الكنيسة جهاراً في شخص القديس غريغوريوس بالاماس.

يحاول رسم الأيقونة المتفق مع لاهوت الكنيسة أن يجعل حضور النعمة غير المخلوقة وقوة الله غير المخلوقة في الأيقونة أمراً ملموساً لأعضاء الكنيسة المتألهين، وذلك من خلال وسائل فنية خاصة. وهكذا، فإن الأيقونة الأرثوذكسية تعكس حقيقة الشخص المنتمي إلى "الخليقة الجديدة". تسعى الأيقونة إلى أن تصوّر في نفس الوقت تاريخية الشخص المرسوم وحضور النعمة الإلهية فيه. هكذا نفهم أن رسم الأيقونات ليس بفن مقدّس بحت، بل أيضاً هو لغة من لغات اللاهوت التي لا يعبر بواسطة الأحرف والكلمات، بل من خلال أشكال وألوان. بكلام آخر، إن الأيقونة الأرثوذكسية لا تصوّر بتقنياتها شخصاً منزهاً عن المادة/الهيولى، بل تصوّر الإنسان المتجلي والمتأله وتُظهر بهذا الشكل خبرة الشخص المصوّر في اشتراكه بالنعمة المؤهّلة التي لله المثلث الأقانيم. حسب عقيدة الكنيسة حول المسيح، تعتبر المادة الملموسة شيئاً مهماً قابلاً لأن يتحرّر من الخطيئة والفساد وأن يتجدّد، يتجلى ويتأله. والأيقونة الأرثوذكسية تصوّر

(٩) وقفت الكنيسة اللاتينية بوضوح ضد رأي القديس ثيودرس الستوديني، الذي هو رأي الكنيسة المشرقية جمعاء، عند مجمع نريانت (١٥٤٥-١٥٦٣). انظر بهذا الخصوص:

P. Stockmeier, "Die Entscheidungen des 7. Ökumenischen Konzils und die Stellung der Römisch-Katholischen Kirche zu den Bildern", in: *Orthodoxes Forum, Zeitschrift des Instituts für Orthodoxe Theologie der Universität München*, 2, 1987, 235-36.

إن الموقف الكاثوليكي الآنف ذكره مبني بلا ريب على فرضياتها اللاهوتية الخاطئة.

تماماً هذه الحالة من التجلي التي هي أيضاً حالة الخلود^(١١) والحرية في المسيح. وليس من قبيل الصدفة أنه في زمن إعلان تعليم القديس غريغوريوس بالاماس بواسطة مراسيم مجمعية كانت ترسم خصوصاً أيقونة تجلي المسيح. وهذا لأن أيقونة التجلي تؤكد تجلي كل مؤمن في إطار الحقيقة الجديدة التي في المسيح.^(١٢)

إنّ هذا الواقع الجديد في المسيح هو واقع أخروي تأتي فيه الأمور الأخيرة، أي السيادة غير المخلوقة وملكوت الله بشكل عربون. تلك الأمور الأخيرة التي دخلت إلى التاريخ بواسطة أعمال يسوع الخلاصية والتي تعاش في أسرار الكنيسة كاتحاد بالنعمة وكتجلي المخلوقات بغير المخلوقات؛ تلك الأمور الأخيرة تعبّر عنها الكنيسة الأرثوذكسية بصواب في فنّ رسم الأيقونات. يُصوّر قديسو الكنيسة في إطارهم التاريخي المخلوق دون إغفال تصوير وقائعهم الجديدة في الملكوت كما ظهرت وكما عاشوها في الزمن الذي وجدوا فيه والذي يصوّر في الأيقونة. إنّ الحقيقة المتجلية كما تقدّمها الكنيسة ليست فقط وسيلة منيرة لتوجيه المؤمنين إلى الأمور الأخيرة، بل هي تعبّر أيضاً عن الخبرة الحيوية للأمور الأخيرة في وسط الجماعة المصلية كعربون واستباق للحياة الآتية وللملكوت الآتي طبعاً. هكذا نفسّر أيضاً رسم أيقونات الظهورات الإلهية^(١٣) المذكورة في الكتاب المقدس وكلّ تلك الأحداث التي ترمز إلى إتمام العام وإلى مجيء المسيح الثاني المجيد. ونحن نعيش كلّ هذه الأحداث داخل الزمن الليتورجي للعبادة وخصوصاً في الافخارستيا المقدّسة.^(١٤)

(١١) بحق قال رئيس دير استافرونيكيتا، الأب باسيلوس غونتنيكاكيس: إنّ الأيقونة الأرثوذكسية لشهادة لانتصار رب الحياة على الموت... وقوتها هي قوة القيامة. (St. Mount Athos, 1978, 138 Eisodikon).

(١٢) تعكس الكنيسة الأرثوذكسية في قديسيها الصورة التاريخية، لا بل الصورة التاريخية المجددة (το κατ' εικονα). تلك الصورة التي تتجدد وتتجلى في الكنيسة بواسطة جمال الصورة الأصلية وسيادتها، أعني المسيح عينه. ليس المسيح 'صورة الله غير المنظور' (كول ١: ١٥) وحسب، بل هو أيضاً أصل صورة الإنسان الجديد المتأله.

(١٣) See Synodikon (Council Decision) about Orthodoxy in Joannis Karmiris, Τα δογματικά και συμβολικά μνημεία της Ορθόδοξου Καθολικής Εκκλησίας, vol. 1, Athens, 1960, 245-246.

(١٤) انظر افشين الأنافورا: 'ونحن بما أننا ذاكرون هذه الوصية الخلاصية وكل ما جرى من أجلنا: الصليب، والقبر، والقيامة في اليوم الثالث، والصعود إلى السماوات، والجلوس عن اليمين، والمجيء الثاني المجيد أيضاً...'

نستطيع أن نقول بعزم إنَّ للأيقونة الأرثوذكسية طابعاً أخروياً^(١٥) بمقدار ما هي تعبّر عن الوقائع الأخروية بكل معنى الكلمة، أي عن اتحاد المخلوقات بغير المخلوقات دون أي اختلاط، بالشكل الذي يحصل في الاجتماع الافخارستي. ونقدر أن نقول بشكل أدقَّ إنَّ الأيقونة الأرثوذكسية تصوّر الوجود الأخروي للشخص المصوّر، أي تصوّر شخصاً ممجّداً بواسطة القوة الإلهية غير المخلوقة إلى أن يصير جسده روحياً. نقول أنَّ هذه القوّة المؤلّهة التي تنبع من الثالوث والتي تتراءى حسب خيرة الكنيسة بشكل نور غير مخلوق،^(١٦) يسعى الرسّام الأرثوذكسي للأيقونة ليعبّر عنها في رسمه ليس فقط بواسطة رسم الهالة، بل أيضاً في رسم النور المميّز الذي يضيء به الرسّام أيقونته. إنَّ هذا النور المنبثق من داخل الأيقونة، هو متحرّر من أي قانون للطبيعة التي تأمر باتّساع تدريجي للنور. إنَّ الرسّام الأرثوذكسيّ للأيقونة يقلّل الظلال التي تفرض على الرسّام قوانين الطبيعة إلى مقياس صغير جداً ويبرز بهذا الشكل الانخفاف الأخروي للشخص المصوّر. ومع أنّ الأيقونات الأرثوذكسية تعبّر عن الخصائص التاريخية للشخص المرسوم، فإنّها تجرّب أيضاً تصوير هذا الشخص كمواطن للملكوت وذلك بواسطة إنارتها المميّزة.^(١٧) هكذا نثبت أنّ في رسم الأيقونات الأرثوذكسي يعكس لاهوت النور.^(١٨)

Σεε αλσο Π. Βασιλιαδισ, Εικονα και Εκκλησια στην Αποκαλυψη, iv: Βιβλικες (١٥)
Ερμηνευτικες Μελετες, Τησσσαλονικα, 1988, 417.

(١٦)
Gregory Palamas, Υπερ των ιερως ησυχαζοντων, 3,3,9, Edition P. Christou, vol. 1,
Thessalonika 1962, 867.

(١٧) للتعلم بخصوص ميزات النور في الأيقونة البيزنطية انظر:

Σταματις Σκλιρις, Απο την προσωπογραφια στην εικονα, iv: Συναξη 24, Αθηνσ
1987, 20-21 & 30-34.

(١٨) راجع مدخل N. Matsouka إلى يوحنا الدمشقي في:

I. Κατα Μανιχαων Διαλογος, II. Προς τους διαβαλλοντας τας αγιας εικονας,
Λογοι τρεις, Κειμενο – Μεταφραση, Εισαγωγή – Σχολια, Τησσσαλονικα 1988, 31:

في اللاهوت الأرثوذكسي الله نور وكل حيّ يحيى ويتحرك ويتطور ويكتمل بمقدار استيعابه لهذا النور ويفضل إضاءه عليه... لا يوجد في الأيقونات البيزنطية الظل، ولا رسم المنظور، ولا الأشياء بشكلها الناقص؛ يتغيب عن الأيقونة كل توتر بين النور والظلمة. يضيء كامل النور بسلام على كل ما يوجد ويستحقه. الرسّام الأرثوذكسي، الذين يسلكون حسب عقيدة الكنيسة ينجحون في وصف علاقة الفيزياء، بما وراء الفيزياء."

أما في مسيحية الغرب، فهناك واقع مختلف كلياً فيما يخص موضوع الأيقونات. صحيح أن الكنيسة الغربية دعمت قرارات المجمع المسكوني السابع خلال مشاركتها فيه، ولكن ممارستها فيما بعد شددت على أهمية الدور التربوي للصورة،^(١٩) ولم تلتفت إلى أهمية الحضور الإلهي في الأيقونة. ولا يجد الإيمان الأرثوذكسي في الكنيسة الكاثوليكية الغربية أي أساس لاهوتي بما يخص موضوع الأيقونة كحامل الحضور الإلهي بالنعمة غير المخلوقة التي يعطيها الروح القدس والتي ينالها كل مؤمن في علاقته الشخصية بالله. وهذا لأن الكنيسة الكاثوليكية الغربية لا تميز بين الجوهر غير المخلوق والقوة والنعمة الإلهية غير المخلوقتين. وتتماً لأن الكنيسة الكاثوليكية لا تقبل وجود النعمة الإلهية غير المخلوقة، وترفض تأليه الإنسان الذي يشترك في هذه النعمة، ينقص لهذه الكنيسة المعقولات اللاهوتية اللازمة لتطوير تعليم عن الأيقونات يعبر عنه بواسطتها تأليه الإنسان. حسب المفهوم الكاثوليكي تقوم علاقة الإنسان بالله بواسطة نعمة مخلوقة. وهكذا عندما ينال الإنسان خلاصه والنعمة، على قول الكاثوليك، فإنه لا يتخطى طبيعته، لأن النعمة التي تخلصه تنتمي إلى عالم المخلوقات. وهكذا، فإن الفن الديني الغربي بقي طبعاً تحت قيود قوانين الطبيعة المخلوقة، وهذا ما يفسر الصفة الطبيعية في هذا الفن. نحن نعتقد أن المفاهيم اللاهوتية المذكورة أعلاه توضح لماذا أدخل

(١٩) راجع في هذا الموضوع البحث المخصص للكنيسة الكاثوليكية:

G. Lange, *Bild und Wort, Die Katechetischen Funktionen des Bildes in der griechischen Theologie des sechsten bis neunten Jahrhunderts*, Würzburg, 1969.

رفض المجمع التريانتي بشكل خاص المعنى اللاهوتي للأيقونة وشدد على وظيفتها في التربية والزينة. ولكن المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥) استرجع نظرياً تعليم الكنيسة غير المنقسمة حول الأيقونة. راجع:

Sacrosanctum Concilium III, 1/125/128; H. Jedin, "Das Tridentinum und die bildenden Künste", ZKG 74 (1963, 321-339).

في إطار احتفالات الألف والمائتين سنة للمجمع المسكوني السابع وجه بابا روما الحالي رسالة إلى أساقفه يشير فيها إلى 'اهتمام جديد بلاهوت الأيقونة المشرقية وروحانياتها؛ وهذا في مجموعة من الملاحظات اللافتة النظر. إن تسليم الأيقونة، يقول، يتطلب من الرسامين الوعي بأنهم يتممون رسالة في خدمة الكنيسة. الفن المسيحي الأصيل هو ذلك الذي بواسطة جذبية الجمال يحسس المؤمن أن الرب حاضر في كنيسته... وأن السيادة التي وعدنا بها الله، تنير كياننا من الآن... الأيقونة الليتورجية تلقي علينا رؤية الآخر غير المنظور وتتيحنا التقارب من حقيقة العالم الروحاني الأخرى.' راجع:

Apostolischer Brief Duodecimum Saeculum des Papstes von Rom Johannes Paul II. An die Bischöfe der Katholischen Kirche zur 1200-Jahr-Feier des 2. Konzils zu Nikäa, 1987, 14-15.

الكاثوليك على صورهم الإنارة من جانب واحد والتي تسبب ظلالاً عدّة على الصورة وتعبّر فقط عن النور الموجود في هذا العالم. وهذه المفاهيم توضح أيضاً لماذا يسمح الكاثوليك أو على الأقلّ يتحمّلون صوراً ليس لها علاقة بالشخص المصوّر فيها والتي تسبّب في بعض الأحيان تساؤلات سلوكية/أخلاقية. يشير كلّ هذا إلى أنّ التصوير الديني الغربي بقي تحت قيود العالم الحاضر الساقط غير المتجلبّي. لذلك نستطيع القول بحقّ إنّ الرسم الديني في المسيحية الغربية لا يعود إلى تدهور الرسّامين فحسب، بل إنّه يعود، كما يقول العالم المختصّ بالأيقونات ليونيد أوسبنسكي Leonid Uspenski، إلى انحراف اللاهوت الغربي^(٢٠) الذي يعبّر في دوره عن الحياة الكنسية الضالّة التي تعيشها المسيحية الغربية.

بخلاف الرسم الديني الغربي، يفترض الرسم الأرثوذكسي للأيقونات لاهوت الكنيسة الأرثوذكسية وخبرتها. إنّ الشرق الأرثوذكسي يشدّد على أن يفرّق بين جوهر الله وقوّته، وهذه هي علامة لاهوته وأساس خبرته الروحية. علاوةً على ذلك، تعبّر الأيقونة الأرثوذكسية بواسطة فنّها المعروف وإنارتها المميّزة عن هذا اللاهوت وعن هذه الخبرة في تصويرها للأشخاص المتألّهين بين القديسين. وهكذا ساهمت عقيدة الأيقونة في إدراك حضور الأصل المصوّر في الأيقونة.

كيف يفهم إذا حضور المسيح والقديسين بالنعمة؟

علينا أولاً أن لا ننسى أن لأيقونة المسيح أساسها العقائديّ في تجسّد اللوغس الإلهي الذي يجعل أيضاً تصوير القديسين من البديهيّات، لأنّ القديسين هم أعضاء ممجّدين لجسد المسيح المنعم، ولأنّ كنيسته، أعني جسد المسيح، تتأسّس وتترأى في الاجتماع الإفخارستيّ فإنّها تصير المكان الأنسب لتصوير أعضائها الممجّدين الذين هم أعضاء جسد المسيح. في تصوير المسيح على الأيقونة يقول قرار المجمع المسكوني السابع لا تتخالط ولا تتماثل طبيعتا المسيح بشكل التعليم القائل بالطبيعة الواحدة،^(٢١) ولا تُقسّمان كما كانت تعلم النسطورية.^(٢٢) علاوةً على ذلك، وكما يقول القديس ثيودرس

Theology of the Icon, New York 1978, 213. (٢٠)

Mansi 13, 252 CD. (٢١)

Mansi 13, 344 DE. (٢٢)

الستوديتي: 'كلّ مَنْ يُصوّر في أيقونة يصوّر ليس بطبيعته بل بحسب أيقونيته'.^(٢٣) باعتبار ذلك فإننا لا نصوّر لا الطبيعة الإلهية ولا الطبيعة البشرية بل أيقون المسيح بخصائصه المعينة التي تحدّد طبيعة المسيح البشرية. وهكذا، تصوّر أيقونات المسيح شخص الإله/الإنسان. إنها شخصية الذي هو إله تام وإنسان تام والذي له وجود في الطبيعتين. في أيقونة المسيح يظهر شخص المسيح حسب طبيعته البشرية لأنّه في تجسّده صار مرئياً وتاريخياً. في تصوير خصائص الطبيعة البشرية للمسيح صار المسيح ملموساً كإله تام وإنسان تام. وكما لا تفصل في تصوير المسيح الطبيعة البشرية عن اللوغوس الإلهي، هكذا أيضاً لا تُفصل النعمة المؤلّهة والقوّة المؤلّهة من مصدرهما الذي هو اللوغوس الإلهي. في أيقونة المسيح يوجد أيضاً تصوير لطبيعته البشرية المؤلّهة. ولكن هذا الناسوت المؤلّ لا يُعقل دون حضور الألوهة التي منها يتألّه الناسوت. ونحن نعرف أنّ الطبيعة البشرية لا تتألّه من نفسها. في حالة المسيح تألّمت الطبيعة البشرية من خلال الاتحاد الأيقوني، هي مُسِحّت بالألوهة الكلمة الإله وصارت هذه الطبيعة تُشبهه لله، شبيهة للمسيح، دون أيّ تغيير،^(٢٤) الطبيعة البشرية صارت دون اختلاط ودون تفسير جزءاً من أيقون الكلمة الإله.^(٢٥) طبيعة المسيح البشرية قد تألّمت دون أن تخسر خصائصها الطبيعية. وعلى هذه النقطة تماماً أنشأ آباء المجمع المسكوني السابع تصوير المسيح. إنّ جسد المسيح يبقى دائماً جسداً بغضّ النظر عن تألّفه، وهو جسد بكلّ الخصائص الطبيعية والمخلوقة التي من بينها إمكانية تصويره في رسم.^(٢٦) إنّ تصوير المسيح، إنّ كان قبل أو بعد قيامته، يؤيّد أنّ الطبيعة البشرية للمسيح وطبيعة كلّ إنسان مرتبطة بجسد المسيح الأسراري وهي تبقى دائماً مخلوقة. جسد المسيح القائم هو نفس الجسد الذي لمجيئه التاريخي ولكن مع الميزة الخاصة بكونه (الجسد) قد تحرّر من الموت ومن حدودية هذا الدهر اللذين يفرضان ويُلزّمان على كلّ جسد قوانين الطبيعة. بالرغم من ذلك فإنّ جسد المسيح ما صار غير مادّي ولا تصير أجساد المؤمنين في القيامة العامة غير ماديّة، ولكنّها ستصير روحانية.

PG 99, 405 A.

(٢٣)

Nikiphoros, *Αντιρρησις* 1,20, PG 100, 233 C.

(٢٤)

See N. Matsouka, "Φιλοσοφία και δογματική διδασκαλία του Ιωαννου Δαμασκηνου, iv: Επιστημονική Επετηρίς της Θεολογικής Σχολής του

(٢٥)

Πανεπιστημιου Θεσσαλονικη V 14 (1969), 283.

(٢٦)

Nikiphoros, PG 1000, 240 CD.

من النصوص المميزة لمفهوم أيقونة المسيح نجد اعتراف المجمع المسكوني السابع التالي: عندما نرسم أيقونة السيد نعرف بأن جسد السيد قد تأله ونفهم أن هذه الأيقونة لا تشير إلا إلى تصوير أصله^(٢٧). وبالتالي لا تعبر أيقونة المسيح عن مزاج فنيّ ما ولكنها طريقة تعبير للاهوت الكنيسة. ولأن الطبيعة البشرية في المسيح قد تألهت، يجب على الأيقونة، التي تقلد أصلها، أن تشير إلى هذه الحقيقة. تصوير الأيقونات في الكنيسة الأرثوذكسية يتحرك في إطار المفاهيم المثبتة في المجمع المسكوني السابع، وسيبقى هكذا لكي يحافظ على هويته. والأسلوب البيزنطي الذي تطوّر في الشرق الأرثوذكسي يُعبر بأفضل طريقة عن الخبرة والحقيقة الأرثوذكسيتين. تعبر أيقونة المسيح، إلى درجة بعيدة، عن حقيقة اتحاد الحقيقتين دون تغيير ودون امتزاج في شخص الكلمة الإله. هذا لا يعني، طبعاً، أن الأيقونة الأرثوذكسية تصوّر وتظهر الطبيعة الإلهية. هذا يعني فقط أن فنّ الأيقونة يحاول أن يشارك الإنسان الحياة الإلهية وأن يشهد لخبرة القداسة على الجسد البشري. وبالتالي فإنّ الأيقونة الشرقية تصوّر المسيح كالإنسان/الإله. كما ويشدّد المجمع المسكوني السابع على أن الكنيسة الجامعة تصوّر المسيح في هيئته البشرية، هذه الهيئة لا تُفصل أبداً ألوهة المسيح المتحدّة بها.^(٢٨) الطبيعة الإلهية، كما قلنا سابقاً، تحضر في الأيقونة "بواسطة النعمة والقوة الإلهيتين."

على هذه الأفكار نستطيع الآن أن نبي رأينا. عندما نقول إن المسيح حاضر في أيقونة بحسب النعمة نقصد أن المسيح لا يحضر في طبيعته ولكنه يحضر في قوّة الألوهة وفي نعمتها. هكذا يلاقي المرء في الأيقونة حضور الأصل حسب النعمة.

ولكن بينما يحضر المسيح بالنعمة في أيقونته بسبب ألوهيته غير المنفصلة، كيف يتمّ هذا الحضور في ايقونات القديسين؟ هل يستطيع أيضاً القديسون أن يحضروا حسب النعمة في أيقوناتهم؟ وإذا كان هذا صحيحاً، ألا يتخطى القديسون حدود المخلوقات؟

(٢٧) Mansi 13, 344 A. من وحي هذا الرأي نفهم لماذا يستطيع المؤمن أن يقرأ النماذج الرئيسية (archetypes) وأن يرى النماذج الأولية (prototypes) في الأيقونة الأرثوذكسية. راجع:

P. Evdokimov, L'Art de l'icône. La Theologie de la Beauté, DDB Paris, 1970

(٢٨) Mansi 13, 344 A. لا ينفصل المسيح عن أيقونته كأنهما جزءان، بل هما يترابطان بالنعمة. إن أيقونة المسيح لا تأتي كإفادة لحدث تجسد الكلمة التاريخي، لكنها تشهد لحضور الكلمة بالنعمة في الواقع التاريخي للكنيسة.

الجواب ينبع من إطار كنسي صحيح، وهو يتبع أيضاً الفكر اللاهوتي للآباء المدافعين عن الأيقونة وقراراتهم العقائدية.

أولاً، بينما أن تصوير المسيح ووالدة الإله^(٢٩) يركز ويشهد لتجسد الكلمة، يشير تصوير القديسين إلى جسد المسيح الأسراري. أيقونتا المسيح ووالدة الإله تعبران عن العقيدة المسيحانية. أيقونات القديسين، من جهتها، تعبر عن النتائج والوجودية للعقيدة المسيحانية، إذ إنها تشير إلى الوجود في المسيح كما اختبره الأشخاص المصورون في هذه الأيقونات. بكلام آخر، إن أيقونات القديسين تعلن حياة المسيح غير المخلوقة كما اختبرها هؤلاء الأشخاص. في تصوير القديسين تُظهر الكنيسة للمؤمنين الهوية الشخصية لأعضائها الممجدين، أعني أن الكنيسة تعلن خصائص هؤلاء الأشخاص في وضعهم الذي وهبهم إياه المسيح، كما قال القديس يوحنا الدمشقي، وهكذا تشهد الكنيسة لمشاركة المصور في المجد الإلهي وفي نعمة المسيح.^(٣٠) ويقول القديس ثيودرس الستوديتي في هذا الخصوص إن تصوير القديس يشير إلى الاتحاد غير المنفصل القائم بين الأشخاص المصورين.^(٣١) لا تخطئ الكنيسة في فهمها للمسيح عندما ترسمه في أيقونة، لأنها لا تفصل بين الطبيعتين، ولا تخطئ الكنيسة في فهمها للكنيسة عندما ترسم القديسين، لأن المسيح لا ينفصل عن أعضائه الممجدين. وهكذا، كما ترسم الكنيسة المسيح في طبيعته البشرية الممجدة، هكذا ترسم أيضاً القديسين في طبيعتهم المؤهّلة. هذا يعني أنهم يصورون على أساس وضعهم الإنساني الجديد الخاص بأعضاء جسد المسيح الممجّد. هذا الوضع الإنساني الجديد هو وضع أخروي يُلخّص في تجلّي الوجود المخلوق للمصورين من خلال مشاركتهم في القوى الإلهية والمجد الإلهي. دون هذا الوضع الجديد تخسر أيقونات الكنيسة أي اختلاف مع الرسم الطبيعي التابع للغرب المسيحي

(٢٩) فيما يتعلق بمعنى أيقونة السيدة والدة الإله عند الآباء المدافعين عن الأيقونة راجع:

Δ. Τσελενγιδις, Η θεολογία της εικονας και η ανθρωπολογική σημασία της, Θεσσαλονικά 1984, 111-114.

PG 94, 1252 BC; 2,15, PG 94, 1301 A.

(٣٠)

See PG 99, 416 C.

(٣١)

الذي يصوّر الإنسان دون أي مشاركة بالنعمة والمجد. بكلام أدقّ، إنّ التصوير الغربي لا يعبر عن نتائج العقيدة المسيحية على الجسد الأسراري، ويقتصر على تصوير الإنسان بشكله الحيوي العادي المتعب في سلوكياته. إلا أنّ إنساناً سلوكياً كهذا ينتج من مفهوم نسطوريوس وآريوس للمسيح. لأنّه حسب نسطوريوس وآريوس فإنّ ملء الإنسان له طابع سلوكي وليس وجودي. لا نتهم الكاثوليك بالآريوسية ولا بالنسطورية. نحن نشير إلى أنّ عدم تمييزهم بين جوهر الله وقواه يسبّب سلسلة من المشاكل في حقل النتائج المسيحية، وهذه المشاكل تنعكس أيضاً على رسمهم الديني.

كيف نفهم، إذاً، حضور القديسين في أيقوناتهم حسب النعمة؟ الأيقونة، مثلاً، أو آية صورة، تجعل وجود المصوّر ملموساً، تجعل الغياب الوجودي للشخص المرسوم ملحوظاً لإحساسنا. إلا أنّ ما يحصل في الأيقونات هو أهمّ وأعمق من ذلك بعد. ليس فقط الشخص الغائب هو الذي يحضر في الأيقونة، ولكن، كما قال القديس يوحنا الدمشقي: "تمتلئ أيقونات القديسين من الروح القدس"^(٣٢)، ويفسر كيف يحصل هذا: 'عندما الشخص المصوّر هو مليء من النعمة، هكذا أيضاً تشترك الصور في هذه النعمة'.^(٣٣) على هذا الأساس نقدر أن نقول إنّ القديسين المصوّرين يحضرون بالنعمة في أيقوناتهم موضحاً أنّ هذا الحضور في الأيقونة يتمّ بواسطة النعمة المؤلّهة التي إليها تعود قداسة المصوّرين. حضور النعمة والقوّة المؤلّهة هو حضور مستمرّ لأنّه يعكس حضور الروح القدس في الشخص المصوّر. ويكمن الأساس العقائدي لهذا الحضور في العلاقة القائمة بين الأيقونة وأصلها. "كان القديسون في حياتهم ممثلون بالروح القدس"، يقول القديس يوحنا الدمشقي، "وبعدما أكملوا سيرهم، تبقى نعمة الروح القدس ثابتة في نفوسهم وفي أجسادهم في القبور وهكذا أيضاً في صورهم وفي أيقوناتهم".^(٣٤) كما يرتبط القديسون كيانياً بنعم الروح القدس الإلهية، هكذا أيضاً تحمل الأيقونات في الكنيسة نعمة الروح القدس فتصير آنية للقوى الإلهية.^(٣٥) وفيما نرفض

See PG 99, 416 C. (٣٢)

See PG 94, 1252 AB. (٣٣)

PG 94 1264 B. (٣٤)

PG 94, 1249 CD. (٣٥)

الحضور المتزامن للشخص المصوّر في كل من أيقوناته، نوّكد أن النعمة الإلهية غير المخلوقة وقوى الأصل المصوّر تحضر دائماً في أيقوناته. بالنعمة الإلهية غير المخلوقة يحضر القديسون في آنٍ واحد في جميع أيقوناتهم، وبواسطة هذه النعمة تتم شركة الإفخارستية ويصبح كل مؤمن في شركة حقيقيّة مع القديسين. وفيما القديسون، كونهم خلائق، يبقون في مجال العالم المخلوق، أي في إطار المكان والزمان، يتخطون، كونهم أناس متألّهين، حدود العالم المخلوق بواسطة النعمة الإلهية غير المخلوقة التي تجعلهم حاضرين وفاعلين في أيقوناتهم. هكذا يتّضح لنا أن أيقونات الكنيسة لا تجسّد الأصل ولا تحدّه عندما تحويه في مكان ما. الأيقونات، بالأحرى، هي رمزٌ مرئي للحقيقة غير المرئية والممّجدة التي صوّرت فيها. لذلك يفسر آباء المجمع المسكوني السابع أن رفض الأيقونات من قبل محاربي الأيقونة يعني رفض حضور الأصل في أيقونته.^(٣٦) حسب المجمع المسكوني السابع يتاح للمؤمنين، بعد اتمام بعض الشروط، أن يروا روحياً الأصل المصوّر في الأيقونة.^(٣٧) يشدد القديس يوحنا الدمشقي على أنّ المؤمنين يرون الأصل المصوّر بنفس الحس الروحي المتججلي الذي به يشاركون في الحقيقة الآتية وهم في الحياة الراهنة. يرى المؤمن في أيقونة الكنيسة الأصل غير المرئي الذي يحضر بشكل ملموس بالنسبة إلى العيون غير المادية،^(٣٨) العيون الروحية. يشير القديس يوحنا الدمشقي إلى هذه الخبرة الكنسية بتشديد عندما يكتب: "وإذ نرى غير المرئي بواسطة صورة مرئية، نسبحه لأنه كائن حاضر..."^(٣٩) لذلك، عندما ينظر المؤمنون إلى أيقونات القديسين، لا يتوجهون إلى تركيبة فنية من الألوان، بل يعبرون عن شركتهم الحية بالشخص المصوّر. يتشارك المؤمنون في الكنيسة الأرثوذكسية مع القديسين، ليس فقط في سر الإفخارستية فحسب، بل عندما يصرون القديسين في أيقوناتهم أيضاً. من هنا نفهم التكريم الذي تقوم به الكنيسة لأيقونات القديسين والذي لا فرق بينه وبين التكريم الذي تقدمه الكنيسة للبقايا الموقرة أو للقديسين عينهم.

PG 34, 1353 B. Cf. 1,16 PG 94, 1245 B. (٣٦)

See *Mansi* 12, 1066 BC. (٣٧)

PG 94, 1345 A. (٣٨)

PG 94, 1345 A. (٣٩)

يوضح حضور الأصل بالنعمة في الأيقونة القوة المقدسة للأيقونة في الكنيسة. كما سبق فأشرنا، تحمل الأيقونة الكنسية نعمة الشخص المصور وقداسته. حسب المجمع المسكوني السابع، يستطيع المؤمن أن يشترك في هذه النعمة وأن يتقدس بها. يشترك المؤمنون في التقديس الناجم من الأيقونات بواسطة حاسة النظر عندما يتطلعون إلى الشخص المصور. (٤٠) ولكن لا يقتصر تكريم الأيقونة على الشهادة لكرامة الشخص المصور فحسب، بل يكون أيضاً نوع من مشاركة في قداسة ذلك الشخص. "تقبل ونصافح الأيقونات المكرمة، يقول آباء المجمع المسكوني السابع، "لأننا نرجو المشاركة في قداستها." (٤١) وتتلقى النعمة الحاضرة في الأيقونات حواس المؤمنين، الذين تتقدس ليس فقط حواسهم، بل كياناتهم بأجمعه. لا يحدث هذا التقديس بشكل آلي؛ لا يشترك المؤمن في النعمة الإلهية الحاضرة في الأيقونة بهذا الشكل، حتى لو كان يكرم الأيقونة. إن المشاركة في النعمة الإلهية تتم تحت شرطين أساسيين، هما الإيمان والطهارة الروحية. (٤٢) يجب على المؤمن أن يقترب من أيقونات الكنيسة ولديه هذان الأمران. هكذا يبدو لنا

(٤٠) See Mansi 13, 149 DE: هم يتقدسون، عندما يشاهدون بحاسة البصر إلى أيقونة المسيح الموقرة وأيقونة السيدة الحقيقية والدة الإله القديسة وأيقونة الملائكة القديسين وجميع القديسين. "راجع يوحنا الدمشقي في PG 94, 1248 C ونيوذرستوديتي في PG 99, 336 A.

(٤١) See Mansi 13, 149 DE: رغم الإهتمام المتزايد بأيقونة الكنيسة الأرثوذكسية، لا يقدر بحق الجانب الليتورجي والتقديسي للأيقونة. هذا يعود من جهة إلى ظاهرة تسويق الأيقونة ومن جهة أخرى إلى استعمالها كزينة في أماكن دنيوية. فأدانت البطريكية المسكونية بصواب سوء استعمال الأيقونة المقدسة في أيامنا. راجع بهذا الخصوص:

St. Synode of the Great Church of Christ, "Εγκύκλιος περι αγίας Ζε Οικουμενικής Συνοδου, iv: Γρηγόριος ο Παλαμας 720, Τηεσσαλονικα 1984, 728:

'ولكن هذا لا يعني أبداً السماح بعدم تقدير الوظيفة الليتورجية المقدسة للأيقونة وتحويلها إلى أداة زينة في أماكن دنيوية، في البيوت الخاصة أو في المعارض، لمتعة الذين يقدرون الأيقونة كفن دنوي وحسب. كما وأنه لا يُسمح بجعل الأيقونات بضائع للتجارة أو للإنتاج بالجملة على ورق أو على مواد رخيصة، كما يحصل اليوم بواسطة تقانة الطباعة الصناعية التجارية من أجل سلب مرباح وتكاثر تجاؤل مده المتوجات غير المرخص بها في المجتمع الدنيوي الراهن. نعتبر كل هذه الممارسات الرديئة تجاوزاً كبيراً وإهانةً لقداسة الأيقونة، تلك المكسبة الكبيرة لكنيستنا الأرثوذكسية المقدسة ونديتها كأضرار غير مرخص بها ولذلك نمنع أي نوع من نهب الأيقونات لأي شخص كان.

(٤٢) انظر يوحنا الدمشقي، المرجع نفسه، 3, 41, PG 94, 1356 C.

جلياً أن محاربي الأيقونات يُنكرون، في رفضهم للصور، حضور الروح القدس في الأيقونة، وبالتالي ينكرون إمكانية الخلاص للمؤمنين.

يرتبط حضور القديسين في الأيقونة بعجائب الأيقونات ارتباطاً قوياً. إذ أن الأيقونات العجائبية تثبت العلاقة القائمة بين الأيقونة والشخص المصوّر فيها، لأن أباء المجمع المسكوني السابع يؤكدون أن القديسين يتظاهرون كصانعي العجائب من خلال أيقوناتهم^(٤٣). موازياً لذلك تشهد الأيقونة لشركة المؤمنين المباشرة والشخصية مع الأشخاص المصوّرين فيها. يعطي القديس يوحنا الدمشقي التوضيح اللاهوتيّ حول الأيقونات العجائبية: "تأتي العجيبية كاستجابة لله لتضرع المؤمنين المتجهين إلى الأيقونة بإيمان. من يصنع العجيبية دائماً هو الله بغض النظر إذا كان التضرع موجه إليه بشكل مباشر أو غير مباشر. يتقبل الله طلبات المؤمنين أيضاً إذا كانوا متوجهين إليه بواسطة القديسين"^(٤٤). في الكنيسة لا تحصل أبداً عجائب الأيقونات بشكل مستقل، لكنها مرتبطة دائماً بالشخص المصور في الأيقونة، الذي يستمد القوة الصانعة للعجائب من النعمة الإلهية. لا يحدث الشفاء من تلقاء نفسه، يفسر المجمع المسكوني السابع، 'بل يتمّ بواسطة نعمة إلهنا.'^(٤٥) وما أن كل الأيقونات تحمل حضور الأصل المصوّر فيها بالنعمة، تكون التفرقة بين الأيقونات العجائبية والأيقونات غير العجائبية خطأً لاهوتياً،^(٤٦) لأنّ حضور النعمة الإلهية غير المخلوقة المعطاة للأصل المصوّر في الأيقونة، هي تجعل الأيقونات قادرة أن تصنع العجائب، حتى لو لم تظهر هذه النعمة أحياناً بطريقة ملموسة.

أخيراً، نقول باختصار أن حضور الأصل بالنعمة في الأيقونة مبني على التعليم العقائدي المقرر في المجمع المسكوني السابع، وأنه يثبت لاهوت الكنيسة الأرثوذكسية في تفرقة بين الجوهر والقوة الإلهيين، وأنه يستند على تجسد اللوغوس الإلهي وأعماله

^(٤٣) Mansi 13, 65 D.

^(٤٤) انظر المرجع نفسه ٣، ١٣، PG 94, 1352 CD.

^(٤٥) Mansi 13, 65 D.

^(٤٦) راجع هذا الخصوص: Η διδασκαλία της Ορθοδόξου Εκκλησίας περί των

θαυματοργων εικονων : Ημερολογιον της Μεγαλοχαρη Αθίνα ١٩٧٣

الخلاصية، وأنه لخدمة الشركة الحميمة والحيوية القائمة بين الأعضاء المجاهدة والأعضاء الممجدة في جسد المسيح المبارك، وأخيراً أن هذا الحضور يبلور قوة الأيقونات المقدسة عجائبها. من هذا كله يتضح لنا، أن حضور الأصل بالنعمة في الأيقونة لا يعتبر حقيقة ذات معنى ثانوي، بل أنه حقيقة ذات تأثير على لاهوت الكنيسة وخبرتها الروحية.

THE GRACIOUS PRESENCE OF THE ORIGIN IN THE ICON

PROF. DR. DIMITRIOS TSELENGIDIS

UNIVERSITY OF THESSALONIKY - UNIVERSITY OF BALAMAND

This article offers a systematic explanation on the doctrine of the Icon as the 7th Ecumenical Council had proclaimed for the entire Church.

Professor Tselengidis deals exhaustively with the classical question regarding the veneration of Icons in the Orthodox Church going back to the sources, the writings of the Holy Fathers and the acts of the Councils, and analyzing them for a modern reader.

The discussion focuses in particular on the relation existing between the person depicted in the Icon (the Origin) and the picture itself. Icons, says Tselengidis, do not represent the sensorial presence of Christ or a Saint, but they show us an eschatological vision of the world based on the Divine Light shed by the Grace of the Spirit on the created word.